يحيى حقى

رجل فى ضوء قنديل

- تملكه حب ماري فنقله من الدبلوماسية إلى التجارة.
- دبلوماسى بالمصادفة.
- أمضى أربع سنوات، مارس فيها الدبلوماسية والسياسة والأدب والدين والعلم.
- أول وآخر مدير لمصلحة الفنون.
- لم يكتب الشعر أو الزجل وتخصص فى القصة القصيرة.
- مصرى أصيل و «ابن بلد» من أصل تركى.
- اكتسب ثقافته من الدين والحارات والعمل الدبلوماسى والمطالعات الواسعة.

الوطن ليس دائما المكان الذى انتمى إليه أناس لنا صلة بهم.

الوطن مكان وأناس ومعايشة يومية، يكتسب خلالها الإنسان علاقة روحية بمن حوله وما حوله، فيتعزز ارتباطه بالمكان وأناسه، وقد يصبح أقوى من ارتباط غيره بهما.

هذا ما حدث مع الأديب المصرى المبدع يحيى حقى، المنحدر من أصل تركى.

يقول يحيى حقى عن نفسه: «أنا، كالزلطة، إنْ كسرتنى لوجدت داخلى يصرخ: أنا مصرى». وكان يُوصف بأنه مصرى حتى النخاع وابن بلد.

والحكاية مع يحيى حقى طويلة، وتبدأ من جده إبراهيم حقى، الذى هاجر من الأناضول إلى مصر وعمل لدى الحكومة حتى وصل إلى منصب وكيل مديرية البحيرة، حيث تزوج وأنجب أبناءه الثلاثة، محمد، والد يحيى حقى، ومحمود طاهر، ثم كامل حقى.

وكان أبو والدة يحيى حقى، واسمها سيدة هانم حسين، تركيًا وأمها ألبانية. وقد التقت الأسرتان فى بندر المحمودية فى البحيرة، حيث تزوجت سيدة هانم بمحمد حقى الموظف فى نظارة الأوقاف.

بيئة شعبية ومثقفة

كانت سيدة هانم تجيد القراءة والكتابة فى زمن كانت الأمية متفشية فيه بوجه عام بين النساء، وكانت أغلب قراءاتها فى الكتب الدينية، فانعكس ذلك على أسماء أولادها السبعة الذين أنجبتهم، إذ أطلقت عليهم أسماء استمدتها من الكتب التى قرأتها وهم على الترتيب: إبراهيم وإسماعيل ويحيى وزكريا وموسى وفاطمة ومريم.

وعاشت أسرة محمد حقى موظف الأوقاف فى حى السيدة زينب فى القاهرة. وولد يحيى حقى يوم ٧ يناير من عام ١٩٠٥م فى درب الميضة خلف مسجد أم هاشم فى السيدة زينب. وكان لمولده فى ذلك الحى أثره فى أن تكون الأحياء الشعبية، والسيدة زينب خاصة، مسرحًا أثيرًا ومحببًا إلى قلبه، وما أبدع من إنتاج أدبى.

أكثر من مدرسة

وانتقلت الأسرة من السيدة زينب إلى حى الخليفة. وألحق يحيى بمدرسة أم عباس (خديوى مصر، عباس باشا الأول) فى حى الصليبية، وهى مدرسة مجانية للفقراء، ومكث فيها يحيى من عام ١٩١٢م حتى نال الشهادة الابتدائية عام ١٩١٧م، فانتقل إلى المدرسة التجهيزية التابعة لها، وكانت تسمى «المدرسة الإلهامية» فى حى الحلمية الجديدة. وظل فيها سنتين، حتى نال شهادة الكفاءة.

والتحق بعد ذلك بالمدرسة السعيدية لينتقل فى العام التالى إلى المدرسة الخديوية، التى حصل منها على شهادة البكالوريا بترتيب الأربعين بين مجموع تلاميذ القطر المصرى كله. وأتاح له تفوقه فرصة الالتحاق بمدرسة الحقوق السلطانية، وكانت من كليات القمة فى ذلك الوقت، حيث لم تكن تقبل بين طلبتها سوى المتفوقين جدًا فى دراستهم وتدقق كثيرًا فى اختيارهم.

وتخرج فى شهر يونيو من العام ١٩٢٥م، فى مدرسة الحقوق وعمره كان عشرين عامًا ونصف العام، وكان ضمن دفعة ضمت الدكتور عبد الحكيم الرفاعى، وحلمى بهجت بدوى، وطه السيد نصر، وعبد العزيز بدر، وعبد الكريم أبو شفة، وتوفيق الحكيم.

تخرج يحيى حقى فى مدرسة الحقوق ليتجه إلى العمل فى الحكومة لسببين حددهما هو بنفسه:

«الأول: لأن جميع أسرتى من الموظفين، فليس فيهم أحد من أصحاب المهن الحرة، حتى أقتدى به، أو أسير فى «شق محراثه».

والثانى: إن ترتيبى جاء فى أوائل المتقدمين، فكان من الطبيعى والمنتظر ألا أجد صعوبة فى الالتحاق بوظائف النيابة العامة، وكانت تعتبر حينئذ هى ووظائف قلم قضايا الحكومة أقصى ما يصبو إليه حامل الليسانس».

يحيى المحامى

عمل يحيى حقى فى النيابة فترة من الزمن دون أن يكون راضيًا عن عمله، ثم تركها إلى المحاماة متوقعًا الفشل فيها. وبدأ فى الإسكندرية عمله فى المحاماة بمرتب شهرى قدره ستة جنيهات لم يقبض منها شيئًا. ثم انتقل إلى مكتب محام آخر بمرتب ثمانية جنيهات، لكنه لم يستمر فى مهنة المحاماة أكثر من ثمانية شهور، وبدأ بعدها القلق يسيطر على الأهل حول مستقبل ابنهم يحيى، حتى وجدوا له وظيفة معاون إدارة فى منفلوط.

كانت وظيفة معاون الإدارة شاقة، وعرف خلالها يحيى حقى الحسرة والألم وكرب الحياة، وامتحن فيها امتحانًا عسيرًا، لكنه أيضًا حقق منها فائدة كبيرة ككاتب قصة.

يقول يحيى حقى: «إن تجربة منفلوط، التى استمرت سنتين، شكلت أهم أحداث حياتى على الإطلاق».

كانت منفلوط وظروفها وطباع أهلها وعاداتهم وتقاليدهم وزرعهم وخفرهم وعمدهم وموظفيهم ودنياهم، هى مصر الحقيقية كما رآها يحيى حقى.

وفى عام ١٩٢٩م كان يقلب صفحات جريدة فى ليل الصعيد الصامت عندما وقعت عيناه على إعلان.

دبلوماسى بالمصادفة

كان حافظ عفيفى وقتها وزيرًا للخارجية، وقررت الوزارة عقد مسابقة للالتحاق بوظائفها، وتقدم يحيى حقى للمسابقة، ونجح، وانتقل من منفلوط إلى

خارج مصر، من سلك الشعب إلى السلك الدبلوماسى. وقفز دفعة واحدة من طبقة «الغلابة» إلى طبقة الخارجية وأبناء الأعيان والطبقة الأرستقراطية.

وكما اهتزت نفسه بعنف عندما سافر إلى الصعيد لأول مرة، وكما شعر بعد هذه الهزة وكأنه انتقل من عالم إلى عالم آخر، ومن دنيا إلى دنيا أخرى شديدة الاختلاف، اهتزت نفسه بعنف أشد وهو ينتقل من الصعيد إلى جدة. فخلال أسابيع قليلة، وجد يحيى حقى نفسه أمينًا للمحفوظات فى القنصلية المصرية فى جدة، وانتقل من التحقيقات وحكايات السرقة والقتل والغرام المحرم وليل الصعيد الساكت وقصص الدماء والطين، إلى حيث كان عليه أن يتعلم «البروتوكول والإيتيكيت»، وكيف يأكل، وكيف يشرب، وكيف يلبس، وكيف يمشى، وكيف يتكلم، وكيف يتصرف؟

من جدة إلى تركيا

وفى جدة حدثت فى حياته ثلاثة أشياء مهمة: فقد التقى بالعقلية الغربية المنظمة فاحترمها. والتقى بالمسلمين من جميع أنحاء الدنيا يأتون للحج كل عام، فيكونون أمام عين الفنان الثاقبة لوحة كان لها أبلغ الأثر فى نفسه.

وفى جدة، كان النشاط الدبلوماسى قليلاً فراح يقضى وقته فى المكتبة ليقرأ عبد الرحمن الجبرتى، المؤرخ، فيفتن بما كتب، لقد رأى فيه شعبه الذى أضنى نفسه فى البحث عنه فى السيدة زينب والحلمية والصليبة والخليفة حتى منفلوط.

وكان كتاب الجبرتى أول كتاب يهزه من الأعماق ويؤثر فيه تأثيرًا مباشرًا، فكتب ست مقالات تبحث عن الفكاهة عند الشعب المصرى، استند فيها إلى الجبرتى، ووقعها باسم عبد الرحمن بن حسن، وهو اسم الجبرتى.

وفى جدة رأى المسلمين من كل أنحاء الدنيا، رآهم من الهند والصين ومن جاوة إندونيسيا، ومن تركستان وأفريقيا فأمسك قلمه وراح يكتب ويرسل مقالاته إلى القاهرة، وفى ضميره أن يتحقق حلم الإسلام بوحدة كل المسلمين.

فى جدة أيضًا التقى جون فيلبى، المستشرق البريطانى الذى لعب دوراً شهيراً فى الشرق لحساب المخابرات البريطانية والذى اجتاز منطقة الربع الخالى ووضع عنها كتابًا، وكان يحيى حقى يمر بعد انتصاف الليل ليجد فيلبى ساهراً يقرأ ويكتب.

وكان فان دور مولن، قنصل هولندا فى جدة مستشرقًا أيضًا. وتخصص فى رسم خرائط الجزيرة العربية.

غير أن تجربة يحيى حقى فى جدة لم تدم لأكثر من عام، ففى عام ١٩٣٠م انتقل إلى تركيا مسقط رأس جدة إبراهيم حقى، وهناك عاش تجربة من أعمق تجارب حياته، فقد رأى بعينى رأسه المرحلة الثالثة لكمال أتاتورك، وهى المرحلة التى أراد فيها أن يحوّل تركيا من دولة مسلمة إلى دولة علمانية لا دينية.

بين أتاتورك وموسولينى

وفى تركيا ارتدى القبعة لأول مرة وتعلّم أن للقبعات علمًا واصولاً. وفى تركيا أيضًا، تعلم اللغة التركية وأتقنها، وشاهد كمال أتاتورك عن قرب، وسمعه يخطب، وعاصر تحويل الحروف التركية من العربية إلى اللاتينية، والتقى بالشاعر عبد الحق حامد، والشاعر يحيى كمال.

أمضى أربع سنوات فى تركيا، عذبته وعلمته، ومارس فيها الدبلوماسية والسياسة والأدب والدين والعلم ونقل بعدها إلى روما.

وانتقل بذلك من ديكتاتورية كمال أتاتورك، إلى «فاشية» موسولينى، الذى كانت الجماهير فى روما تزأر فى وحشية استجابة له، وهو يهدر كأعظم الخطباء.

وكما تعلم يحيى حقى التركية فى تركيا تعلم الإيطالية فى إيطاليا وراح يغترف من الأدب الإيطالى بنهم شديد، حتى قرأ لموسولينى الكاتب المسرحى الفنان مسرحية باسم «مئة يوم»، وكتابًا آخر بعنوان «أخى أرنالدو». وعرف أن

موسولينى كان يكتب بياناته الرسمية بنفسه، وكانت تلك البيانات قطعًا من الأدب الملتهب.

وفى روما كان يراقب التوسع الإيطالى فى شمال أفريقيا ويدرك نية السلطة الإيطالية التهام مصر، وأصابه القلق عندما زار الزعيم النازى الألمانى هتلر، روما. وشاهد هتلر وهو يمشى بصلف وكبرياء، ثم زار ألمانيا وهو لا يعرف كلمة واحدة من اللغة الألمانية، لكنه وقف مبهوراً وسط عشرات الألوف من الناس تستمع لهتلر وهو يخطب فى برلين، وبلغ به الانفعال مع كلمات الرجل التى لم يكن يفقه منها كلمة إلى حد أن دموعه راحت تنهمر.

أيام باريسية

وعاد إلى مصر عام ١٩٣٩م، فتلبسه إحساس غريب، حيث بدا له كأنه يراها لأول مرة، فكتب رواية «قنديل أم هاشم».

وظل فى مصر عشر سنوات وعمل مديراً لمكتب وزير الخارجية. وفى هذه الفترة تزوج وأنجب ابنته الوحيدة. لكن زواجه لم يقدر له الاستمرار لوفاة زوجته بعد شهر واحد من ميلاد ابنته. وظـل يحيى حقى وفيًا لذكرى زواجه الأول عشر سنوات كاملة، انتقل بعدها إلى باريس عام ١٩٤٩م سكرتيراً أول للسفارة المصرية، وكان أهم ما شعر به هو الإحساس الفياض بطعم الحرية التى لم يعرفها فى استانبول أو روما، ولم يصادفها فى جدة من قبلهما. فقال عنها: «فى باريس كل واحد حر الحكومة هناك هى عسكرى المرور وبس».

غير أنه كان يعرف ما الذى يريده من «مدينة النور» فعرف طريق الفن وزار معارض الفن التشكيلى، وتعرف إلى رفيقة مشوار حياته الفنانة التشكيلية جان مارى جيهو التى تزوجها بعد ذلك وشاركته حياته حتى آخر نفس.

ونقل بعد عامين إلى أنقرة، فعاد إلى تركيا وقد انحسرت عنها الموجة

«الكمالية»، لكنه عاد هذه المرة مستشاراً للسفارة وليس أمينًا للمحفوظات، وبعدها أصبح أديبًا ناضجًا، يمارس الكتابة، وبدأ اسمه يملأ الأسماع.

فى أنقرة ظل يحيى حقى عامين قامت أثناءهما فى مصر ثورة يوليو ١٩٥٢م. وبعد قيامها بعامين قفز إلى قمة السلك الدبلوماسى، حيث عين وزيراً مفوضًا فى ليبيا عام ١٩٥٤م.

أهم من السياسة

عاش يحيى حقى عامًا عصيبًا هناك، حيث كانت تلك هى المرة الأولى التى يتولى فيها رئاسة بعثة دبلوماسية، كان الصراع مرهقًا فى ليبيا، التى كانت مقدمة على توقيع معاهدات مع أمريكا وإنجلترا وفرنسا، وكان الصراع فى قلبه أشد، مع حب جان مارى جيهو، لكنه لم يكن يستطيع الزواج بها إلا إذا ترك السلك الدبلوماسى بعد أن عاش فيه كل هذا العمر.

كان يعرف أن الفن هو طريقه، وكان قد بلغ التاسعة والأربعين من عمره وقد آن الأوان أن يدفئ الحب قلبه وبيته.

وتقدم يحيى حقى إلى وزارة الخارجية بطلب الانتقال إلى وزارة أخرى، ووافقوا على الطلب فانتقل من الخارجية إلى وزارة التجارة. وهكذا استطاع أن يتزوج حبيبة قلبه بعد أن عاد إلى القاهرة مرة أخرى وكان زواجه فى يوم لا ينساه هو ٢٢ سبتمبر من عام ١٩٥٣م.

وفى عام ١٩٥٥م أنشئت مصلحة الفنون فكان هو أول وآخر مدير لها، إذ ألغيت عقب تركه لها، وبعد أن أصبحت هناك وزارة للثقافة تؤدى عملها، ثم عين يحيى حقى مستشاراً لدار الكتب، وهى الوظيفة التى استقال منها عام ١٩٦١م قبل أن يعين رئيسًا لتحرير مجلة «المجلة» من عام ١٩٦٢م وحتى عام ١٩٧٠م، حين تبنت الحكومة سياسة التقشف وضغط المصروفات، لتغلق

المجلات الثقافية، وتطفئ بذلك كل المصابيح التى أضاءت سماء الثقافة والأدب فى مصر حقبة زاهرة من الزمن.

ستون عامًا مع الأدب

قال يحيى حقى مرة ردًا على سؤال للناقد الراحل فؤاد دوارة، فى كتابه «عشرة أدباء يتحدثون»:

«بدأت أكتب فى سن مبكرة، فى حوالى السادسة عشرة، ومعظم هذه الكتابات لم أجمعها بالطبع، ولكنى بدأت فى كتابة القصة القصيرة بشكل منتظم بين عامى ١٩٢٢ و ١٩٢٣، حين تخرجت فى مدرسة الحقوق السلطانية، وكنت متأثرًا بالأدب الروسى أكثر من الأدبين الإنجليزى والفرنسى، تسألنى لماذا؟ لأننى وجدت كل شخص فى الأدب الروسى تقريبًا، مشغولاً بقضية كبيرة هى خلاص الروح، ويخيّل إلىّ أن الأدب الصادق هو الأدب الذى وإنْ سجل وعبّر وحلل وكتب بأسلوب واقعى إلا أنه لا يكتفى بذلك، بل ويرتفع إلى حد التبشير، وهذا ما وجدته فى الأدب الروسى، وهذا ما سحرنى».

* ولماذا القصة القصيرة بالذات؟

يقول: «لم أكتب الشعر قط، ولا الزجل، وإنما اتجهت فورًا إلى القصة القصيرة لأنها أقرب قوالب الأدب إلى الشعر، لى نزعة شديدة لحب الشعر، وأشترط أن تكون القصة القصيرة فيها نغمة شعرية نحس بها إحساسًا خفيفًا دون أن تكون طاغية على القصة، وسر عبقرية اللغة هو الشعر، ويجتمع هذان السببان فى أنى فضلت القصة».